النص الأدبي :إشكالية المفهوم وتعدد الدلالات

-مقاربة مفاهيميّة وصفيّة-

Literary text: the problem of the concept and the multiplicity of meanings

-Descriptive Conceptual Approach-

د.محمد سيف الإسلام بـــوفـــلاقـــة

كلية الآداب واللُّغات، جامعة عنابة، الجزائر

تاريخ الارسال :2022-12-11	تاريخ القبول:2022-12-23	تاريخ النشر:2022/12/31

ملخص:

وضعت تعريفات كثيرة لمفهوم النص، وذلك نظراً لاختلاف الاتجاهات، وتنوع المدارس الأدبية، والنقدية، التي جاءت نتيجة لاختلاف المشارب الثقافية، والمنابع المعرفية، والفلسفية؛ فالقارئ يقف أمام مجموعة كبيرة من المفاهيم، وركام هائل من التعريفات التي تسعى إلى تحديد ماهية النص؛ ويرمي هذا البحث إلى تقديم متابعة، ومُعالجة تحليليّة لبعض المفاهيم التي تتصل بالنص؛ من خلال الإحاطة بإشكالية المفهوم، والوقوف مع تعدد الدلالات بين الباحثين والدارسين، وقد انتهج البحث منهجاً وصفياً تحليلياً من أجل الإحاطة بشتى أبعاد هذا الموضوع الذي يكتسي أهمية بالغة.

الكلمات المفتاحية: النص؛ المفهوم؛ الدلالة؛ مقاربة؛ الوصف.

Abstract:

Many definitions have been developed for the concept of the text, due to the different trends, and the diversity of literary and critical schools, which came as a result of different cultural trends, and cognitive and philosophical sources. The reader stands in front of a large group of concepts, and a huge pile of definitions that seek to define what the text is; This research aims to provide a follow-up and analytical treatment of some concepts related to the text. By encompassing the problem of the concept, and standing with the multiplicity of connotations between researchers and scholars, the research adopted a descriptive and analytical approach in order to encompass the various dimensions of this topic, which is of great importance.

Keywords: text; concept; indication; approach; the description.

مقدمة

وضعت تعريفات كثيرة لمفهوم النص، وذلك نظراً لاختلاف الاتجاهات،وتنوع المدارس الأدبية، والنقدية، التي جاءت نتيجة لاختلاف المشارب الثقافية، والمنابع المعرفية، والفلسفية؛ فالقارئ يقف أمام مجموعة كبيرة من المفاهيم،وركام هائل من التعريفات التي تسعى إلى تحديد ماهية النص،انطلاقاً من خلفيات متفرقة،ومرجعيات مختلفة،ويبدو أن التباين حول تحديد ماهية النص، وإبراز دلالاته، وحدوده، يكمن بشكل رئيس في اختلاف التصورات لمفهوم النص،والهدف من دراسته، والغاية من تحليله، والتعمق مع أبعاده،فالإشكالية مطروحة، ولقد تعددت«قراءة النص،وتنوعت مفاهيمه،وتلونت بتلون النظريات الأدبية،والمدارس النقدية،فالنص في نظر السيميائيين نظام سيميائي مادته في التبليغ اللغة؛ كما عد في نظر اللسانيين فضاء يخترقه مفهوم الكتابة، والنقد، والأسلوب، وهو علاقة لسانية مكوناته الجوهرية هي الدال،والمدلول، أما في نظر رواد الاتجاه الأسلوبي فالنص وحدة قائمة مستقلة عن إدراك القارئ لها، فشلوفسكي يفترض أن أي محتوى(عمل أدبي) ليس شيئاً آخر غير مجموع الوسائل الأسلوبية».(سعيد بوسقطة، 2001م، ص:214).

و ما يزال الإشكال قائماً حول إمكانية التنظير للنص الأدبي، إذ أنه يتميز بالانفتاح، والاتساع، والزئبقية، وهذا ما جعل أغلب الدارسين يؤكدون على أن النص الأدبي أكبر، وأوسع من حصره في نظرية محددة، فهو بنية مفتوحة لا يتسنى للدارس الإمساك بها، وتقييدها، فكبار النقاد المعاصرين يرون أن النص الأدبي لا يُمكن التنظير له، نظراً لعدم اقتصاره على عناصر محددة، وحتى وإن قصرناه على عناصر محددة؛ فالتفسير والتأويل يختلف من دارس إلى آخر، فهو ليس حكراً على العناصر اللغوية فحسب، بل يمتد إلى المستوى النحوي، والصرفي، والصوتي، والأسلوبي، والدلالي، وصولاً إلى المستوى التداولي الذي يرتكز على سياقات تلقي النص، وظروف هذا التلقي، إضافة إلى السياقات النفسية،والاجتماعية، والثقافية التي يحدث فيها التلقي، فحدود النص، ونظريته،و«مفهوميته تتجسد، وتتبلور وفق تلك المنطلقات، سواء أكانت إيديولوجية،أم نفسية،أم خلقية، فالنص سيتموقع في الواقع الذي ينتجه عبر لغة مزدوجة تتم في مادة اللسان،وفي التاريخ الاجتماعي، فعبر تحويل مادة اللسان(في تنظيمه المنطقي والنحوي)،وعبر نقل علامات القوى من الساحة التاريخية(في مدلولاتها المنظمة من موقع ذلك الملفوظ المبلغ) إلى مجال اللسان ينقرئ النص، ويرتبط بالواقع بشكل مزدوج، (سعيد بوسقطة، 2001م، ص:213)؛ فمادام النص الأدبي عائماً كما يؤكد الناقد عبد الله الغذامي؛ فمبدعه يطلقه في فضاء، ويأخذ في تقرير حقيقته، وما دام النص إحالة إلى إطار مرجعي، فإن تلك المرجعية ستحدد طبيعة التعامل معه(النص)بوصفه كلاً مكوناً من عناصر مختلفة متكاملة فيما بينها على أساس مستويات متعددة، أو النظر إليه من منظور علوم مختلفة تاريخية،ونفسية، وأنثروبولوجية، وغيرها...

النص الأدبي :إشكالية المفهوم وتعدد الدلالات

يوصف النص بأنه تتابعات طويلة منتهية، أو فقرة، أو جملة، أو كلمة في بعض الأحيان؛ «لأنه من العبث الزمني أن نتصور سياقاً لغوياً،أو ما فوق لغوي بمعزل عن نص،حتى وإن كان غير واحد من اللسانيين يتساءل: هل توجد نصوص؟وعلى الأصح، هل من الممكن، أو اللاممكن بيان أولويات لسانية بالتأكيد،وبكيفية متماسكة لتحديد تتابعات مقالية، والتي نسميها(نصوصاً)؟ عدة مفاهيم تتصادم بشأن هذه النقطة،ومن اللسانيين من يقيم

مفهومه النصيّ بصورة جوهرية(أدبياً)على الحدس الذي يتصور خطابات معروفة بكل بساطة كبنيات مغلقة،والمسماة نصوصاً،وهذا الصنف يجيب إيجابياً على المسألة المطروحة على وجود وهوية النص،وما يطرح أمامهم من مشاكل بخصوص الأولوية اللسانية،أو غيرها لتحديد ما هية هذا النص،فإنهم لا يترددون من الانطلاق من مبدأ البحث عن البنية الداخلية لهذه النصوص بناء على تعدد مستويات التحليل الممكنة...،ومنهم من يطمح ،أو يسعى على الإضفاء على النص الإجراء الكلاسيكي المطبق على الجملة،وأمام هذه الصعوبة،فإنهم يرون أن الحل الأكثر نجاعة،وبكل بساطة،أن نسلم بوجوده،وأن نأخذ أشياءه كأشياء أولوية غير معرفة،وهذا الحل يمكننا لاحقاً من البحث التدرجي عن بنيته الداخلية...» (عبد الجليل مرتاض، 2010م، ص:17).

وكثيراً ما يتداخل مصطلح(النص) مع الخطاب، الذي يتوافق في مفهومه العام والسطحي مع مفهوم الرسالة،إذ يُمكن أن نعرفه على أنه نصُ مكتوب يُنقل من مرسل إلى مرسل إليه،و يتضمن فائدة معينة، ويحقق غرضاً يرمي إليه المرسل،أو هو«نص يكتبه كاتبه إلى شخص آخر...ويتضمن الخطاب أخباراً تعني الطرفين. وكانت الخطابات في البدء موجزة،ثم أسهب بها الكتاب حتى غدت فناً قائماً بذاته،يعتني به كاتبه. وقد يكتب المرء خطابه شعراً.لكن الأشهر أن يكون الخطاب نثراً» (محمد التونجي، 1993م، ص:402).

بيد أن التعمق مع مصطلح الخطاب، والروز في أصوله،يدفعنا إلى العودة إلى جذوره التي هي اللغة، والكلام،فالكلام«هو العملية التي يتم بوساطتها تبادل الأفكار بين المتكلم والسامع، والكلام يستند إلى العقل والتطور، ويفرق بين الإنسان والحيوان» (محمد التونجي، 1993م، ص:726).

وفي نظر اللسانيات الحديثة فالكلام هو الإنجاز اللغوي الفردي،والأداء الفعلي في الواقع، وهو خاضع لرغبة الفرد ،وإرادته، ودهائه،واعتماداً على تقسيم دوسوسير فهو يحتل المرتبة الثالثة في الظاهرة اللغوية،وهو المنفذ الأساس لدراسة اللسان.

وأما اللغة فهي عبارة عن جملة من الإشارات والرموز التي يستعملها الإنسان بغرض التعبير عن غاياته،وهي ملكة إنسانية تسمح بالإنجاز الفعلي للكلام، وكما عرفها الجرجاني فهي«ما يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»(الجرجاني، 1998م، ص:247).

في«معجم الألفاظ والأعلام القرآنية»لمحمد إسماعيل إبراهيم،نجد الفعل«خطب»خطب القوم أو في القوم:وعظهم ،أو قرأ عليهم خطبة،خطب الفتاة دعاها، وطلبها إلى الزواج،وخاطب فلاناً:كلمه،والخطاب ما يكلم به الرجل صاحبه،والخطب:الشأن ،والأمر صغر،أو عظم،وغلب استعماله للأمر العظيم المكروه،والجمع خطوب،وما خطبك: ما شأنك،و ما الذي حملك عليه،وفصل الخطاب:فصل الخصام بالتمييز بين الحق،و الباطل،أو الكلام الفاصل بين الصواب والخطأ،والخِطب:بكسر الخاء:الرجل الذي يخطب المرأة.

لقد ظهر مصطلح(خطاب)في حقل الدراسات اللغوية في الغرب،ويبدو أنه نما«وتطور في ظل التفاعلات التي عرفتها هذه الدراسات،ولاسيما بعد ظهور كتاب فرديناند دي سوسير: (محاضرات في اللسانيات العامة)،الذي تضمن المبادئ العامة الأساسية التي جاء بها هذا الأخير،وأهمها:تفريقه بين الدال،والمدلول،واللغة كظاهرة اجتماعية،والكلام كظاهرة فردية،وبلورته لمفهوم(نسق)،أو(نظام)،الذي تطور فيما بعد إلى بنية.

ونظراً إلى تعدد مدارس،واتجاهات الدراسات اللسانية الحديثة،فقد تعددت مفاهيم،ومدلولات هذا المصطلح:

أ–مرادف المفهوم السوسيري(كلام)...

ب-وهو(أي الخطاب)،مادام منسوباً إلى فاعل،وحدة لغوية تتجاوز أبعادها الجملة،رسالة،أو مقول.

ج-وبهذا المعنى يُلحق الخطاب بالتحليل اللساني،لأن المعتبر في هذه الحالة هو مجموع قواعد تسلسل،وتتابع الجمل المكونة للمقول،وأول من اقترح دراسة هذا التسلسل هو(هاريس)..

د- الخطاب حسب(بنفنيست) هو كل مقول يفترض متكلماً،ومستمعاً،تكون لدى الأول نية التأثير في الثاني بصورة ما»(إبراهيم صحراوي، 2003م، ص:15).

كما حدد الباحث(ما نكينو) مفهوم الخطاب، من حيث إنه يعوض الكلام عند دي سوسير،ويعارض اللسان،و ذهب إلى أن الجملة لا تدخل في إطار اللسان،وقد حصر الخطاب في تعريفات رئيسة هي:

«1-يعتبر الخطاب مرادفاً للكلام عند دي سوسير،وهو المعنى الجاري في اللسانيات.

2-الخطاب هو الوحدة اللسانية التي تتعدى الجملة،لتصبح مرسلة كلية،أو ملفوظاً.

3-يتبنى تعريف هاريس الذي وسع حدود الوصف اللساني إلى ما هو خارج الجملة،وقد عرف هاريس الخطاب بقوله: (إنه ملفوظ طويل،أو هو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة،يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر،بوساطة المنهجية التوزيعية،وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض).

فقد طبق هاريس تصوره التوزيعي على الخطاب،ولاحظ أن ما يحكم تشكل الأجزاء هو ظاهرة التنظيم،والترابط التي تكشف عن بنية النص»(عبد القادر شرشار، 2006م، ص:160).

4- تميز المدرسة الفرنسية بين دلالات الملفوظ،ومفهوم الخطاب،حيث إن الملفوظ-بالنسبة إليها-عبارة عن متتالية من الجمل الموضوعة بين بياضين دلاليين(انقطاعين تواصليين).

أما الخطاب فهو الملفوظ المعتبر من رؤية حركية خطابية،مشروط بها،وهكذا فالنص من وجهة تبنينه لغوياً تجعل منه ملفوظاً،ودراسته لسانياً من حيث شروط إنتاجه تجعل منه خطاباً.

5- هناك تعريف يعارض بين اللسان،والخطاب،إذ أن اللسان ينظر إليه ككل منته،وثابت العناصر نسبياً،في حين أن الخطاب هو مفهوم ينطلق من اعتبار المآل الذي تمارس فيه الإنتاجية،وهو الطابع السياقي غير المتوقع،الذي يحدد قيماً جديدة لوحدات اللسان .(عبد القادر شرشار، 2006م، ص:162).

ويشير الباحث إبراهيم صحراوي إلى أن بعض الباحثين،يقدمون دلالات تجعل من الخطاب مرادفاً،لمفهوم(النص)،أو(المقول)،ومن بين هؤلاء(قريماس)،على أن استعماله للنص كمرادف للخطاب،ليس من باب التبسيط كما يرى بعض الدارسين،لأنه إذ يفعل ذلك يستند إلى اشتراك اللفظين في أداء المعنى ذاته(أي ترادفهما)،وهكذا فمدلولات(خطاب)تتعدد،ولكنها لا تتعارض في تعاريفها له بأنه ممارسة لملكة اللغة...

وقد أصبح مصطلح الخطاب شائعاً،ومتداولاً «في مجموعة من الحقول النظرية النقدية،وعلم النفس،واللسانيات،والفلسفة،وعلم النفس الاجتماعي،فالخطاب هو :

1-تواصل فعلي،حديث،أو محادثة.

2-معالجة شكلية لموضوع في الكلام،أو الكتابة.

3-وحدة نصية يستعملها اللساني لتحليل ظاهرة لسانية تتسلسل في أكثر من جملة».(سارة ميلز، 2009م، ص:120).

ونستشهد في هذا الشأن بقول أحد الباحثين لدى وقوفه على التحولات التي وقعت في الدراسات اللسانية من خلال تركيزها على دلالات الخطاب،إذ يقول: «اتجهت الدراسات اللسانية مع العقد الخامس من القرن

العشرين،إلى التركيز على الخطاب،بوصفه حدثاً تلفظياً يروم فعل التواصل المؤثر،وإنتاجاً لغوياً إبداعياً دائم التجدد،بالبحث في بنيته،وأنماطه،وسلميته،وكان من نتائج ذلك ازدهار مباحث اللسانيات التداولية،والاجتماعية،والواقع أن النضال من أجل بناء تصور اجتماعي للغة يعود في بوادره الأولى إلى محاولات تجاوز المقاربة السوسيرية،من هنا فإن البحث في الخطاب يعني النظر في الوجود الفعلي للغة،أي وجودها في صورة الاستعمال من خلال عملية التخاطب».(إبراهيم إبراهيمي، 2013م، ص:23).

إننا نلفي لدى رصدنا لمصطلح(خطاب) جملة من المرادفات له فهو يعادل الكثير من المصطلحات،من بينها نذكر: «الكلام/الملفوظ/الرسالة/الأطروحة/الحديث/الإنشاء/لغة الكلام/الكلام المتصل/أسلوب التناول/الإخبار/التكلم/المخاطبة/التحاور/التواصل/التفاعل/التبادل/مقصد/الإنتاج/المحتوى/البنية العميقة/الأقطاب الدلالية».(بلخير عقاب، 2011م، ص:40).

إن البحث في مفهوم الخطاب مهم جداً،وليس من السهولة طرقه،وقد أضحى مصطلح(خطاب)–في السنوات الأخيرة–يستعمل في ميدان الدراسات الأدبية للدلالة على المصطلحين الآتيين:

–الكلام داخل السياق.

–و النص.

وهناك تخصص خاص في اللسانيات يهتم بقضايا النص،هو لسانيات النص،والتبليغ،ورغم كثرة الكتب التي ألفت عن اللسانيات النصية في اللغات الأجنبية،إلا أن هذا العلم ما يزال بكراً بالنسبة للغتنا العربية،ولم يتم استثماره على نحو واسع،وبقدر يسمح للدارسين العرب الذهاب بعيداً نحو الحوار العلمي الرصين،والمناقشة الموسعة حول مختلف القضايا والإشكاليات التي يثيرها هذا العلم الذي ظهر«تجاوزاً للدراسات اللسانية الجملية بمختلف توجهاتها(البنيوية والتوزيعية والسلوكية والوظيفية والتوليدية التحويلية)،ولا يعني التجاوز هنا القطيعة العلمية بين تلك التوجهات واللسانيات النصية،وإنما تطور العلوم يفترض استفادة اللسانيات النصية من كل معطيات اللسانيات الجملية،وتجاوز قصور هذه الأخيرة من حيث إن الجملة لم تعد كافية لكل مسائل الوصف اللغوي،من حيث الدلالة والتداول والسياق الثقافي العام،وكل ذلك له دور حاسم في التواصل اللغوي،وقد أخرجت اللسانيات النصية علوم اللسان من مأزق الدراسات البنيوية التركيبية التي عجزت في الربط بين مختلف أبعاد الظاهرة اللغوية،وقد اتخذت اللسانيات النصية هدفاً رئيساً ترمي الوصول إليه،وهو الوصف والتحليل والدراسة اللغوية للأبنية النصية،وتحليل المظاهر المتنوعة لأشكال التواصل النصي،ذلك أن النص ليس بناء لغوياً فحسب،وإنما يدخل ذلك البناء في سياق تفاعلي بين مخاطِب ومخاطَب،تفاعل لا يتم بجمل متراكم بعضها فوق بعض كيفما اتفق،غير متماسكة ولا يربطها رابط،ولا تدرك النصوص بوصفها أفعال تواصل فردية،بل بوصفها نتائج متجاوزة الإفراد» (عبد الجليل مرتاض، 2012م، ص:04).

وقد حاول بعض النقاد العرب أن يتلمسوا الفوارق ما بين المدونة ،والنص،فأشار أحد الباحثين العرب المرموقين إلى أن المدونة غالباً ما يُراد بها عينة من عينات البحث اللغوي، أو متن أو مادة لغوية،ويرى أن هذه التعريفات،وما سار في موكبها لا تُفرق بين مدونة متصلة بما هو خطي أو منطوق أو مرئي غير لساني،ويذهب الدكتور عبد الجليل مرتاض إلى أنه«ما من شيء يُرى أو يلمس أو يُحس أو يتخيل إلا ويمكن صياغته أو تصور عينة من عيناته،غير أنه من اللامعقول أن نعتبر جملاً أو فقرة أو صفحة من عمل فني أو إبداعي لا يعدو أن

يكون نموذجاً أو نمطاً مثله مثل عينة تؤخذ من كوكب أو معدن أو جسم ما،فهذه كلها عينات مادية وثابتة إلى حد ما،ولا تُفسر إلا تفسيراً مشتركاً في نهاية كشفها واتضاحها وإخضاعها للدراسة العلمية والمخبرية والتجربة العلمية،في حين أن المدونة اللسانية عيناتها غير مادية،وما يفصح عنها متحرك في مداليله وثابت في دواله الصوتية الملفوظة أو المخطوطة،وعادة ما تخضع قراءتها إلى التأويل لا إلى الوصف والتفسير،ولها من المميزات الذاتية والتي لم يحملها العقل الإنساني حتى الآن،ما يمكنها من الحران،باعتبار الأدوات التي نسجت بها شفهياً أو خطياً أبعد غوراً من الإدراك السطحي لأي دارس هاو أو لساني مختص» (عبد الجليل مرتاض، 2012م، ص:96).

ويؤكد الدكتور عبد الجليل مرتاض من جهة أخرى على أن متلقي المدونة لا يتلقى نظاماً أو حتى جزءاً من هذا النظام،لأن اللغة في ذاتها متعددة الأنظمة،والأمر يتوقف قبل كل شيء على المستويات الخطابية التي يتلقاها،أي على التراكيب المختلفة،لأنها مهما سمع السامع ما سمع فإنه لا يستطيع أن يحيط بكل التكلمات الفردية التي يسمعها،ففي هذه الحالة يلجأ إلى فرز التراكيب وانتقائها،ويلفي المتلقي نفسه أمام فردية علنية من الكلام لا أمام نظام لغوي قائم بذاته،فلا يمكنه أن يقف على كل التراكمات الخطابية أو الصور الشفوية الموزعة بين الأفراد،ويستشهد الدكتور عبد الجليل مرتاض في هذا الصدد بقول ملارمي:«إننا لا نصنع الأبيات الشعرية بالأفكار،بل نصنعها بالكلمات»،وبقول الجاحظ:«المعاني مطروحة في الطريق»،ويرى أن جان كوهين هو أوضح ناقد لساني تحدث عن هذه القضية، حيث يقول:«وعندما يخلق الشاعر إذاً استعارة أصيلة،فإنما يخلق الكلمات،وليس العلاقة،إنه يجسد شكلاً قديماً في مادة جديدة،وهنا يكمن إبداعه الشعري،فقد أعطيت الطريقة،وبقي أن تستعمل...،إن الصور الإبداعية ليست جديدة في شكلها،بل في الكلمات الجديدة التي جسدتها فيها عبقرية الشاعر لا غير،قد يحدث أن يعاد استعمال بعض هذه الإنجازات،فتسقط لذلك إلى مستوى الاستعمال،نحصل حينئذ على هذه الصور الاستعمالية حيث الشكل والمادة،العلاقة والكلمات متوفرة سلفاً».

وإذا كانت الغاية من النص هي التبليغ،والذي يرتبط بالنص في مجال لسانيات النص والتبليغ، فمفهوم التبليغ الذي لا تتردد بعض الموسوعات اللسانية الحديثة في تعريفه على أساس أنه تواصل كلامي يندرج في إطار تبادل كلامي من فاعل متكلم ينتج ملفوظاً موجهاً نحو فاعل متكلم آخر يرغب فيه مكالم أو محادث سماعاً له،أو إجابة عليه بشكل صريح أو ضمني تبعاً لنمط الملفوظ المراد تبليغه إلى الفاعل المتكلم الآخر،وفي علم النفس اللغوي فسيرورة التواصل اللغوي ترتبط دلالاتها بالأصوات المتواضع عليها والمعتاد سماعها دون زيادة أو نقصان أو تغيير ،و تعرفه نظرية التبليغ بأنه نقل رسالة أو إرسال معلومة بين مُصدر يصدرها أو باث يرسلها ومستقبل بفضل مُرسلة منتشرة عبر قناة،ويمكن تشبيه هذه العملية الاتصالية بالتبليغ الهاتفي،وقد استشهد الباحث عبد الجليل مرتاض بمنظور قيرو لنظرية التبليغ،حيث يذهب إلى أنه في التبليغ ليس هناك إلا تحويل لشكل مسجل في ماهية أو فحوى خطاب،كما هو الشأن مثلاً في الأشكال البصرية فالخط الهاتفي ينقل طاقة،والرسالة تنقل أشكالاً خطية،ويؤكد قيرو على أن التبليغ لا يتوطد في مستواه الدلالي إلا في نطاق ما يمتلك كل من الباث والمستقبل من رموز مشتركة بغرض ترميز وتفكيك المراسلة،وهنا يتحول الباث مستقبلاً،والمستقبل باثاً بصورة ضمنية أو آلية،أي يعمل الباث في حسبانه أنه مرسل إليه لا مرسل،وأهم ما أكده جيرولد كاتز أن متكلمي اللغة يتقنون استعمالها لأنهم يعرفون قواعدها،وبما أن التواصل اللغوي مسار يكون المعنى الذي يقرن به المتكلم الأصوات هو نفس المعنى الذي يقرن به المستمع الأصوات نفسها،حيث يكون من الضروري استخلاص أن متكلمي لغة طبيعية معينة يتواصلون فيما بينهم في لغتهم،لأن كلاً منهم يمتلك بصورة أساسية تنظيم القواعد نفسه،ويتم التواصل لأن المتكلم يرسل مرسلة

عبر استعمال القواعد اللغوية نفسها التي يستعملها المستمع إليه لكي يلتقطها،وقد نبه رومان جاكبسون إلى أن اللغة يجب أن تُدرس في كل تنوع من تنوعات وظائفها،فقبل التعرض إلى الوظيفة الشعرية لابد من تحديد ماهية مكانها من بين الوظائف الأخرى للغة،وذلك لإعطاء فكرة عن الوظائف الأخرى تتصل بالعوامل المكونة لكل مسار لغوي إزاء كل تواصل لغوي،فالمرسل يرسل مرسلة لمرسل إليه،وحتى تكون هذه المرسلة عملية،فإن المرسلة«تقتضي قبل أي شيء سياقاً تحيل عليه(والمسمى أيضاً تسمية لا تخلو من غموض–المرجع–)،وهذا السياق قابل لأن يُفهم من قبل المرسل إليه،سواء كان كلامياً أو محتملاً لأن يكون كلاماً،ثم تأتي المرسلة التي تتطلب سنناً مشتركاً كلياً أو أقله جزئياً بين المرسل والمرسل إليه(أو بعبارات أخرى بين ترميز المرسلة وتفكيكها)،على أن تتطلب المرسلة أخيراً اتصالاً وقناة فيزيائية وارتباطاً سيكولوجياً بين المرسل والمرسل إليه،ويسمح هذا الاتصال بإقامة واستمرار التبليغ،هذه العوامل المختلفة للتبليغ الكلامي،و التي لا تقبل التجزئة يمكن بيانها بالمخطط التالي:مرسل –سياق–مرسلة–مرسل إليه–اتصال–سنن.

كل عامل من بين هذه العوامل الستة يعطي ميلاداً لوظيفة لغوية مختلفة،ولنقل مباشرة إذا كنا نميز هكذا المظاهر الستة الأساس في اللغة،فإنه يكون من الصعب إيجاد مرسلات تؤدي وظيفة واحدة وحسب،بسبب أن تنوع المرسلات لا يكمن في احتكار وظيفة أو أخرى،بل في تبايناتها التدريجية فيما بينها،ذلك أن البنية الكلامية للمرسلة تخضع قبل كل شيء إلى الوظيفة المهيمنة،بل حتى لو كان تركيز الإحالة مصوباً نحو السياق–والمقول له الوظيفة التعينية،الإدراكية، المرجعية–هو المهمة السائدة في عدة مرسلات،فإنه ينبغي على اللساني اليقظ أن يأخذ بعين الاعتبار الاشتراك الثانوي لوظائف أخرى»(عبد الجليل مرتاض، 2012م، ص:102).

وبناءً على ما أشار إليه جاكبسون، فالوظيفة المسماة سحرية أو تعزيمية، يُمكن أن تُفهم كتحويل لشخص ثالث غائب أو شيء غير متحرك إلى مستقبل لمرسلة ندائية، وقد قدم عدة أمثلة من الجمل،وأوضح الوظائف القطبية الثلاث،تعبيرية،وتحريضية،ومرجعية، وهي توجد في ثلاثة أنماط من الشعر:

1–الشعر الغنائي حيث الشاعر يطلق العنان لمشاعره.

2–الشعر الرثائي المغمور بالحث على التوبة.

3–الشعر الملحمي الذي يسرد تفاصيل الأعمال الباهرة لبطل من الأبطال.

كما تساءل الدكتور عبد الجليل مرتاض عن كيفية اشتغال الآلة الوظيفية في اللغة،وكما يذهب الكثير من اللسانيين فلفظة(الوظيفة) لسانياً في النص تم تداولها من قبل رواد ومؤسسي حلقة(براغ)،ومنذ ذلك العهد انتشرت وما تزال مستعملة إلى أيامنا هذه،وهي تعني كل استعمال لغوي يتخذ دلالات متنوعة جداً على مستوى تحليل الجملة،فالعناصر اللسانية تتميز بتنوع استعمالها،وذلك بوساطة علاقاتها الحصرية فيما بينها،فوظائفها تتشابه في جوانب،وتتباين في جوانب أخرى،وقد استحدث ميشال ريفاتير الوظيفة الأسلوبية التي تضاف إلى الوظائف الست التي أبرزها جاكبسون،فريفاتير قام بتوسيع التصورات التي أضفاها جاكبسون على الوظيفة الشعرية،وقد اقترح تعريف أدبية جملة من الجمل بناءً على ثلاثة شروط:

1–تحدُّد تضافري:قاصداً بهذا المصطلح أن العلاقات بين عناصر الجملة محددة و تضافرية من خلال نسخ بينصي،أو محاكاة لغوية أو استقطاب دلالي أو جعل نظام وصفي ينتقل لطور الحقيقة.

2-تحويل،يقصد به هنا أن الجملة الأدبية وحدة عناصرها الدالة كلها معرضة للتأثير من خلال التعديل لعامل واحد.

3-التوسيع:ويشير به إلى أن التوليد يتم عبر تحويل لدافع جلي بدافع مضمر.

وهناك من اللسانيين من ذهب إلى أن اللغة لها وظيفة واحدة،ومن بين هؤلاء دونيز وفردريك فرانسوا حيث أكدا على أن اللغة في واقعها الأكثر التحاماً نظرياً تتميز بوظيفة واحدة،وهي وظيفة التبليغ التي نلفيها في كل الملفوظات المتلفظ بها.

ومن بين الدراسات التي سعت إلى التنظير لقضايا النص الأدبي كتاب:«نظرية النص الأدبي» للمفكر والعلاّمة الجزائري الدكتور عبد الملك مرتاض ،فهذا الكتاب يمثل نموذجاً للدراسات المنهجية المتميزة،والمعمقة في هذا المجال،فهو يعد من أهم الكتب التي صدرت في موضوع «نظرية النص الأدبي»،حيث إنه يُقدم لنا عبر أكثر من أربعمائة وعشرين صفحة مسحاً شاملاً للكثير من القضايا المركزية التي تتعلق بنظرية النص الأدبي،كما يتطرق إلى جملة من المفاهيم، والإشكاليات التي تتصل بالنص الأدبي، وشواغل التأسيس لنظرية له،ويسعى إلى ربطها بالتراث العربي الأصيل،ويُدافع فيه دفاعاً مُستميتاً عن جهود نقادنا العرب القُدامى،ولا نعجب من ذلك فالدكتور عبد الملك مرتاض هو صاحب مقولة:« التراث العربي الأصيل حداثة متوهجة».

وقد طرح الناقد عبد الملك مرتاض في مقدمة مطولة كشفت عن وعيه العميق بمفاهيم النص ،ودلالاته، تحت عنوان: «النص الأدبي:إشكالية الماهية؛زئبقية المفهوم»، جملة من الأسئلة الهامة التي لا يمكن أن يتجاوزها الدارس لهذا الموضوع،من بينها:ما النص؟،وهل يمكن تحديد ماهية النص؟،فنضع له علماً يحكمه ونظرية تضبطه،وهل يمكن التحكم فيما لا يتحكم فيه؟،ومن خلال السؤال الأخير، وقول المؤلف ما لا يتحكم فيه ندرك بأنه يجزم بعدم إمكانية وضع علم للنص الأدبي،ثم إن الباحث يطرح سؤالاً على نقيض السؤال السالف،فيقول:كيف لا يمكن التحكم فيما ينبغي التحكم فيه؟ ولكن كيف؟ وبأي أداة؟ وبأي منهج؟ وبأي إجراء؟ وهل يمكن فعل شيء ما يقع الاتفاق عليه نهائياً بين المنظرين أمام هذا اللغز العبقري البديع؟

ومن خلال هذه الأسئلة يمكن أن نستشف أن المؤلف ينتصر للتنظير للنص الأدبي،ويجزم المؤلف في هذه القضية بقوله:«عبثاً يحاول الذين يُعلمنُون النص أن يتخذوا لكتابته،أو لقراءته علماً صارماً كل الصرامة به يُحكم،ومعياراً دقيقاً كلّ الدقة إليه يُحتكم...لا علم للنصّ،فيما يبدو...وإنّما النصّ فنّ،من قبيل الفنون العبقريات الحسان،فبأي أداة يمكن علمنة ما لا يُجدي فيه البرهان،علمنة النصّ تشويه لخلقته،وتبشيع لصورته،وتقبيح لبهائه،بل تدمير لكيانه...محاولة العلمنة زعم شكلاني جاء من أقصى بلاد الرّوس،ولم يُفض إلا إلى نقيض القصد...» (عبد الملك مرتاض، 2007م، ص:07).

ومن الأسئلة المهمة التي طرحها كيفية قراءة النص، وهو سؤال جدير بالاهتمام، ويشير إلى أن النص ربما قد يُراعى في قراءاته الشمولية، فإذا لا هو شكل، ولا هو مضمون ولكنه«نسيج سحري متكامل التركيب،محبوك النسيج،وربما رُوعي فيه انتفاء التجنيس:فإذا لا هو شعر، ولا هو نثر،ولكنه نص أدبي مسطور،وربما أمكننا المُنطلق مما يُطلق عليه الشكل نحو المضمون،أو مما يُطلق عليه المضمون نحو الشكل...في اندماج وانسجام،وفي ذوبان واتّساق.وربما أمكن تنكيب قراءة النص عن نقد النص:الذي هو فن لإصدار الحُكم،كما كان يرى قدماء الإغريق،فتحلّ القراءة محلّ النقد،وتغيب الأحكام، وتحضر القراءة لتُمسي إبداعاً يُكتب عن إبداع،فيصير النص قادراً على الإخصاب،ويشتدّ من حوله حوار النصوص،فيُفضي نصٌّ إلى نص ثانٍ،نص ثان، ونصٌّ ثالث إلى نص

رابع،فنُمسي أمام ملحمة يمكن أن نُطلق عليها «النصنصة المتسلسلة»... وتبلغ فعالية اللّغة في هذا المستوى من الكتابة ذروتها العليا ودرجتها القصوى»(عبد الملك مرتاض، 2007م، ص:09).

ويؤكد الناقد مرتاض على أن النص يُمثل مؤسسة قائمة بذاتها لكل من يقرؤه ليؤوله أو ليستعمله بمعزل عن قصدية المؤلف، وقصدية التأليف،كما أن النص يُعطي كل قارئ ما لاُ يعطيه للقارئ الآخر،فالنص هو الواحد المتعدد،وهو القديم المتجدد،وكل قراءة للنص تتجدد وتتعدد،فالنص الأدبي جوهر قائم بذاته،والدراسات التي تصدر عنه تتعدد وتتنوع،ويظل هو واحد، والتحليلات متغيرة، وهو ثابت،وعن العناية بالنص الأدبي، وتركيز الدراسات عليه في الوطن العربي يشير إلى أن هذا الموضوع لم ينل حظاً وافراً من العناية في كتابات الدارسين العرب،وهذا ما عبر عنه بقوله:«وإذا كانت عناية الدارسين الغربيين لم تفتأ تتجدد وتتوسع،فنراها تتبارى في سبر أغوار النص الأدبي،وتتنافس في الذهاب إلى أبعد الحدود الممكنة في تحليله،والتنائي به عن الإجراءات التقليدية التي سادت قروناً طوالاً،والتي كانت تقضي بفصل الشعر عن النثر الأدبيّ،وتخصيص موضوعات للشعر، وموضوعات أُخر للنثر...فإن الدّارسين العرب المحدثين،إذا استثنينا دراسات قليلة كعمل إلياس خوري في محاولته «دراسات في نقد الشعر» ،بإجراءات بنوية، وكمحاولة حسين الواد الذي درس فيها نص «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري تحت عنوان: «البنية القصصية في رسالة الغفران »،وكعمل محمد مفتاح في تحليل قصيدة ابن عبدون الأندلسي الرّائية، وكعمل يمنى العيد في«معرفة النص» ،وكعمل خالدة سعيد في تحليل طائفة من الأعمال الأدبية في كتابها «حركية الإبداع»،وكعمل صلاح فضل في «شفرات النص»،وسوى هؤلاء ممن نعتذر عن عدم ذكرهم:لم يُعنوا كثيراً بتحليل النصوص الأدبية العربية فيكشفوا عن خفاياها الفنيّة، ويستكنهوا أغوارها الجمالية، ويتبحروا في ممارستهم إلى الحدّ الذي يبلغ من النصّ المطروح للتحليل بعض غايته»(عبد الملك مرتاض، 2007م، ص:14).

إن النص الأدبي– وكيفما نظرنا إليه–سواء من الجوانب الخارجية،والسياقات التي من خارج البناء الداخلي،أو من الداخل«من وجهة العلم الموضوعية،أو من وجهة النقد الذاتية كائن جدلي بالطبع،نظنه جوهراً قائماً بنفسه مكتفياً بها،وهو معقد علاقات تشد نظمه الداخلية بعضها إلى بعض،وتشدها جميعاً إلى نظم أخرى خارجية تنتشر حوله دوائرها أوسع فأوسع،من علاقة الكلمة، والكلمة، والجملة،والصورة،والمعنى،إلى علاقة النوع الأدبي بالنس العيني،والزمانية،والآنية،والاتباع، والابتداع، والحقيقة،والخيال،والصدق،والكذب،فإلى علاقة الفنان بالسلطان،والأدب بالمال،كلها أوجه من التفاعل الجدلي بين الأضداد تجعل النص نسيجاً من النسب،ذاته علاقات فيها يفنى ليتحقق » (توفيق بكار، 2000م، ص:105).

وقد ورد في معجم لا روس أن النص يتصل بالنسج،وربما قد تكون في هذا المرادف إشارة إلى قضية التتابع،وتتسلسل الأفكار،وتوالي الكلمات،من أجل تقديم دلالة معينة،كما تمت الإشارة في هذا المعجم إلى أن النص هو الكلام الخاص بكاتب معين في مقابل التعليقات،ويتضح لنا من خلال اطلاعنا على كتابات جوليا كريستيفا أنها ألحقت دلالات النص بممارسات دلالية،ورأت أنه آلة نقل لساني،وهو يعيد توزيع نظام اللغة،إذ يضع الكلام التواصلي،في علاقة تشترك فيها ملفوظات سابقة،أو متزامنة،وهو نسيج من العبارات،والألفاظ التي تطرد في بناء متناسق يتسم بالنظام ،ويعالج موضوعاً،أو موضوعات متنوعة في أداء يتميز على أنماط الكلام اليومي،والكتابة غير الأدبية بالجمالية التي تستند على توظيف الخيال ،والتصوير، والإيقاع،والإيحاء، والرمز، كما أنه رسالة تضم رموزاً تبث من خلال مرسل ما،وهو نص يحوي معرفة معينة فيها قواسم مشتركة،و تلتقي فيه مجموعة من المعارف

الإنسانية، ويعيش في حضور مؤلفه،وبع غيابه،إذ أنه أضحى كائناً عضوياً تفاعلت في صنعه عوامل شتى قبل إبداعه،وهو ليس طريقة إبداع فقط،بل إن فيه جماليات معينة للتلقي،فالأدب هو عملية تضم جماليات، وفنيات،تتطلب ذوقاً رفيعاً من المتلقي. (عبد الرحمن بن محمد القعود، 1997م، ص:174).

إن جوليا كريستيفا تُحدد النص بوصفه جهازاً ينهض بإعادة توزيع نظام اللغة،وذلك بأنه يتصل،ويتواصل بين الكلام التواصلي الهاف إلى الإخبار المباشر،وبين شتلا الملفوظات القديمة،أ والحالية، ولا شك في أن هذا التعريف،أو المفهوم«متميز عما عرفناه عند رومان جاكوبسون،ومصدر تميزه كامن في كونه لا يقف بالنص عند حدود انغلاقه اللغوي،واكتفائه بذاته البنيوية العاقر،بل يعمل على إثراء هذا المنظور الشكلاني للنص من خلال فتح نوافذ هذا الأخير على الإنسان، والمجتمع،والتاريخ،باعتبارها نصوصاً مرجعية لا يمكن للعمل الأدبي إلا أن يدخل معها في علاقة حوار،وتناص،لذلك يندمج النص الأدبي ضمن مجموعة نصوص أخرى مشكلاً بذلك كتابة جواب لنصوص أخرى،إن طريقة كتابة النص–والمتمثلة في قراءة المدونة الأدبية القديمة، والآنية–تجعل من الكاتب شخصاً يحيا داخل التاريخ،ويكتب المجتمع داخل النص،ومن هنا يتضح لنا أن كريستيفا تعمل على استحضار مفهوم نقدي تقليدي، وهو مفهوم السياق/الظروف،لا من أجل تبني سلطته التوجيهية للتحليل،بل من أجل هدم هذه السلطة عن طريق تذويبها في النص،الذي يصبح حينها ممارسة ذات معنى بعد أن كان من قبل فعلاً مجانياً.

ومن المفاهيم المميزة لنظرية النص عند كريستيفا،ثنائية النص الظاهر/النص التوليد،فالنص الظاهر هو الظاهرة اللفظية كما تبدو في بنية الملفوظ المشخص،أي مستوى السطح التركيبي،والدلالي،وهو الجانب الذي اهتمت به الدراسات الوصفية البنيوية،أما النص–التوليد،فهو النص الذي يتم تكوينه من خلال عمليات الهدم/البناء/ التحويل التي تلحق البنيات العميقة للملفوظات» (محمد حمود، 1993م، ص:28).

و يستدعي النص التفسير، والتأويل، والمغامرة،ذلك أن«المنكتب المتغيب يرنو إلى الخروج من التغييب نحو الوضوح،و الجلاء،في ذات الآن يستحضر التفسير النص،فلا يمكن للتفسير أن يوجد على البياض،أو على العراء، إنه يحضر بحضور النص،ولا مكانة للنص إلا متى تأكد التفسير،فالنص الأدبي يقوم على رؤية الأشياء،قد تكون هذه الرؤية مرتبطة بمجال الذات، كما تستهدف الخارج،وسواء في حال الذات،أو الخارج،أو هما معاً،فإن غاية النص التفسير،تفسير عالم الذات والخارج عنها،مثل هذا التفسير يلجأ إلى اعتماد وسائل فنية،وتقنيات، هذه قد تجعل من تفسير النص لأشياء الذات والعالم تفسيراً يتسم بغياب الوضوح، علماً أن الأدبي–خاصة في حالة كونه شعرا–ينحو منحى الخطأ،في الآن الذي ينهض على الصواب،فلكي يفك هذا الصواب الملفوف–زعماً–في خطإ يتحتم التفسير،فهو الذي يجلو انطلاقاً من الخطأ صواب النص الأدبي،وهدفيته.

إن تفسير النص الأدبي لمتواجدات العالم،يدعو إلى تفسير آخر،فالتفسير الثاني لا يتحقق إلا بعد أن يستوفي التفسير الأول شروطه، ومقاصده،التفسير الأول يصدر عن مبدع،بينما الثاني يحتكم في وجوده إلى ناقد مبدع،ناقد بحكم أن النص الأدبي يقدم إليه في جاهزيته،ومبدع،لأن تصوره للنص يفرض عليه تفسيره،وتفكيكه،وإعادة صياغته بشكل،وطريقة مغايرة لما سلف». (نور الدين صدوق، 2016م، ص:12).

ولا يمكن التشكيك في أن مصطلح(نص)،يعد من أكثر المصطلحات رواجاً،وأهمها على مستوى الدراسات المعاصرة في الساحة الثقافية اليوم،وحينما نرجع«إلى أصل الاشتقاق في اللغة العربية،نجد ابن منظور يدرج تحت مادة(نصص) ما يلي: (النص رفعك للشيء،نص الحديث ينصه نصاً رفعه،وكل ما أظهر قد نص،ووضع على المنصة،أي على غاية الفضيحة، والشهرة والظهور). وقال الأزهري:(النص أصله منتهى الأشياء،ومبلغ

أقصاها،ومنه قيل:نصصت الرجل،إذا استقصيت مسألته عن الشيء،حين تستخرج كل ما عنده،وكذلك النص في السير إنما هو أقصى ما تقدر عليه الدابة...ونص الشيء وانتصب إذا استوى واستقام).

ويُفهم من التعريف الفرنسي،أن النص في أبسط معانيه اللغوية،يرتبط بفعل الحياكة،والنسيج،بما يحملانه من دلالات الجهد،والقصد،مادام النسيج مجموعة من العمليات...،وإن مقارنة بسيطة بين هذا المعنى،وما نعرفه عن النص،تكشف نوعاً من التشابه،والتماثل في الدلالة،وحين نعود إلى مفهوم النص في معجميته العربية،فإننا سنجده يحيل هو الآخر–ضمن معانيه العربية–على الاستقامة،والاستواء،بل الأكثر من ذلك،هو أن مفهوم النسيج،والحياكة الذي لم نسجل حضوره في مادة(نص)،نجد له تجلياً واضحاً في مادة(نسج) » (محمد حمود، 1993م، ص:25).

خاتمة:

لقد تعددت، وتنوعت المفاهيم، والقراءات المُقدمة من لدن النقاد العرب المُحدثين لمفهوم النص، والحق أن البحث في مفهوم،«النص»، قد يبدو أمراً ميسوراً، ولكن الحقيقة مختلفة، إذ يبدو أن هذا المفهوم قد قُتل درساً، وقُضي منه الوطر عند كثير من نقاد الأدب، فالباحث سيجد لا محالة مقالات متنوعة في الموضوع، ودراسات هنا وهناك تناقش مفاهيم النص، وتتفنن في عرض أصوله وامتداداته، أو طرائق اشتغاله، ولكن مفهوم النص ما زال يستحق البحث والمدارسة والتأمل، للوقوف على مختلف أبعاده ودلالاته.

قائمة المراجع:

1- بوسقطة سعيد، 2001م، شعرية النص بين جدلية المبدع والمتلقي، مجلة التواصل، مجلة محكمة تصدرها جامعة الشهيد باجي مختار ، عنابة، الجزائر، العدد:08 ، ص:209-220.

2-بكار توفيق،2000م، شعريات عربية، تونس، منشورات دار الجنوب للطباعة والنشر والتوزيع.

3-بلخير عقاب، 2011م، نسقية المصطلح وبدائله المعرفية-دراسة نقدية-، الجزائر، دار الأوطان للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.

4-براهيمي إبراهيم،2013م، استراتيجيات الخطاب في رواية الثلاثة للبشير الإبراهيمي، عنابة، الجزائر، منشورات بونة للبحوث والدراسات.

5-الجرجاني،1998م، كتاب التعريفات،تحقيق:إبراهيم الأبياري، بيروت،لبنان، دار الكتاب العربي.

6- حمود محمد، 1993م ، تدريس الأدب استراتيجية القراءة والاقراء، الدار البيضاء،المغرب، منشورات ديداتيكا.

7- مرتاض عبد الجليل،2010م، التحليل البنيوي للمعنى والسياق، الجزائر، منشورات دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع .

8- مرتاض عبد الملك ،2007م، نظرية النص الأدبي، الجزائر، منشورات دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.

9-ميلز سارة، 2009م ، الخطاب، ترجمة وتقديم:غريب إسكندر، مجلة نزوى، فصلية ثقافية تصدر عن مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان، سلطنة عُمان، العدد:58، ص:111-135.

10- صدوق نور الدين،2016م، النص والتأويل، الشارقة ،الإمارات العربية المتحدة، منشورات دائرة الثقافة والإعلام.

11-صحراوي إبراهيم، 2003م، تحليل الخطاب الأدبي-دراسة تطبيقية-، الجزائر، دار الآفاق.

12- القعود عبد الرحمن بن محمد، 1997م، في الإبداع والتلقي-الشعر خاصة-، مجلة عالم الفكر،الكويت،مجلد:25، ص:19-48.

13- شرشار عبد القادر،2006م، تحليل الخطاب السردي وقضايا النص، وهران، الجزائر، منشورات دار القدس العربي.

14- التونجي محمد،1993م، المعجم المفصل في الأدب، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية.